

الحمد المقس

[القصيدة الفائزة بالجائزة الثالثة في مسابقة الشعر - الموضوع: عودة اللاجئين]

وُيَحْمَلِقُونَ بِأَعْيُنٍ مُّحْمَرَّةٍ
وَأَمْسَدَتِ الْأَيْدِي لَهَا !
وَتَعَثَرَتْ خَطْوَاتِي الْخَيْرِي بِجِسْمِ أَخِي الصَّغِيرِ
وَشَعْرَتُ أَنْي فِي مِحْيَطِ صَاحِبِ لَجَبِ يَمُورُ
وَتَرَأَقَصْتُ فِي عَيْنِي الدُّنْيَا !
وَعَامَ بَقْلِي الصَّمْتُ الْكَثِيبُ !
وَسَرَيْتُ فِي دَوَامَةِ اللَّيْلِ الرَّهِيْبُ
عَبْرَ الْأَزَقَةِ وَالْدُرُوبُ !
وَطَوْتِي الصَّحْرَاءُ وَالصَّمْتُ الْمُرُوعُ وَالظَّلَالُ !
وَنَدَاءُ أَخْتِي مَا يَزَالُ يَرِنُ فِي قَلْبِ التَّلَالُ !
وَحَمَلْتُ أَقْدَامِي ، أَجْرُ هَزِيمِي
وَأَجْرُ أَغْلَالِ الْأَسَى ، وَفَضِيحِي
وَضِياعِ حَقِي فِي الْحَيَاةُ !
وَضِياعِ أَرْضِي !
وَصَرَخْتُ يَا اللَّهُ ! يَا اللَّهُ ! يَا حَامِي الرَّبُوعُ

بِاسْمِ الْمَحَبَّةِ وَالسَّلَامِ وَبِاسْمِ مُوسَى وَالْمَسِيحِ
بِاسْمِ الْعَدَالَةِ وَالْإِخَاءِ وَحَقِّ تَقْرِيرِ الْمَصِيرِ
بِاسْمِ الضَّمِيرِ الْعَالَمِيِّ وَبِاسْمِ مِيثَاقِ السَّلَامِ
ذُجُوكِ يَا أُمِّي ! وَدَاسُوا فَوْقَ رَأْسِكَ بِالنَّعَالِ
ذُجُوكِ يَا أُمِّي ! وَصَوْتُ فِي الْمَصَلَّى مَا يَزَالُ
يَسْرِي بِأَدْعِيَةِ الصَّلَاةِ إِلَى الرَّوَابِي وَالتَّلَالِ
وَعَيُونِكَ الْخَيْرِي ! وَنَظْرَتِكَ الْأَخِيرَةَ فِي ابْتِهَالِ
تَرْنُو لَضَعْفِ أُنِي ! وَإِخْوَتِي الصَّغَارُ
وَجَرِي أُنِي نَحْوِ الْحَقُولِ
وَرَاعِهِ جَيْشُ الطِّفَاةِ !
وَهُوتُ عَلَيْهِ قَذِيفَةُ حَمَقِي لِأَعْدَاءِ الْحَيَاةِ
وَصَرَخْتُ يَا أُمَاهُ وَاحْتَبَسْتُ بِجَلْقِي صَرَخَتِي !!
وَرَأَيْتُ أَخْتِي فِي يَدِ الْأَعْدَاءِ تَرْقُبُ نَجْدَتِي !!
وَتَصِيحُ ! وَالْجُنْدُ الْغَلَاظُ يَقْبَهُهُونَ لَذَلَّتِي
وَمَهَانَتِي ، وَيَعْرِبُدُونُ بِجِسْمِهَا

في هذه الفترة بالذات . وكذلك كان شأن فيرا انبر Vera Inber ، هذه الشاعرة التي ابعدت في اثناء الحمار بطولة انسانية نادرة ، وكذلك الشاعرة الشاب اولغا برغولز Bergholz ، وبروكوفيا الذي كان يدعو الى «استئصال الآفة الالمانية» وينشد قصائد هادئة تمجد الوطن ، فكان الحب والكره يتسندان في شعره .

ولا ريب في ان نور التجربة الروحية الذي انبثق في اثناء الحرب ضد الفاشية يضيء ايضاً الانتاج الذي أصدره الشعراء السوفيات بعد الحرب . ففكرة «السعادة لا تعني النسيان» هي الفكرة الرئيسية لقصيدة الكسندر تفارودوفسكي «البيت على حافة الطريق» فهي تحيي الاعمال البطولية التي قام بها المواطنين السوفيات البسطاء، وتسجل الانتقال الى جهد الانشاء السلمي ومثل هذه فكرة قصيدة الشاعر الشاب الكمي نيدوغونوف Nédogonov «العلم على السوفيات الريفي» وهي حكاية غنائية عن المقاتل العائد الى مسقط رأسه .

ولقد حمل الجيل الجديد من الشعراء الشباب ، المقاتلين القدماء ، موضوعات جديدة واحاسيس جديدة وافكاراً تلتمقي طبعياً وعضوياً مع التيار العام للشعر السوفياتي . وهذه الدفقة المستمرة من الشعر هي نتيجة ثلاثين عاماً من الوان البحث والبراع . انها تثبت ان الجهد الذي بذلته الاجيال الثلاثة من شعراء السوفيات قد افضى الى تفتح فن الكلمة الالمانية للشعب .

عميق بالواقع ، وحب العمل الى البقاء الروحي ، اي جميع المزايا الخلقية التي تعيش في الشعب . وهي مزايا تمت بعد الثورة الاشتراكية ، بفضل الطاقة المدخرة التي اطلقتها :

اما الكسي سوركوف فقد اضحى صوت الجيش السوفياتي ؛ وهو قد امتزج به ، وتأثر بروحه العالية ، ومن هنا نشأت في شعره قوة الايمان والحقيقة . ولم يكن انتاج الجيل السابق من الشعراء اقل حرارة وشأناً في اثناء الحرب . وقد نصب باهل انطوكولسكي في قصيدته «ابني» صورة الشاب السوفياتي المعاصر . ولقد كتب هذه القصيدة إثر حادث مفرج ، وأهداها الى «ذكرى الملازم فلاديمير انطوكولسكي الذي سقط في ساحة الشرف في ٦ تموز ١٩٤٢» على ان قصيدة «ابني» ليست ذات طابع شخصي يمتد الى قصيدة تمتاز فيها احاسيس الاب مع مشاعر المواطن . ولقد صور فيها فتوة بلد ، واحلام ابن وآماله التي لم تتحقق ، وإن آلام الاب نفسه تصبح هنا نوعاً من السلاح .

ويجدد بنا ان تنوّه شعراء ليننغراد المحاصرة ، فقد غادروا بيوتهم ليلزموا مكاتب الصحف و «بيوت الجيش الاحمر» ، ولكن كان بالامكان ان يراهم المرء غالباً في الملاهي وخنادق الجبهة ودور المصانع التي ظلت تعمل تحت نيران العدو . كانوا يتكلمون في المكبرات ، ويكتبون وينشرون مجموعاتهم الشعرية . وقد كان هذا شأن نيقولاوي تيجونوف ، فقد انتج في اثناء الحصار اكثر من الف قصيدة وقصة ودراسة ومقال صحفي ؛ وكان صوته ، صوت ليننغراد ، مسموعاً من البلاد كلها . وقد كتب قصيدته «كبروف معنا»

يا ربّ طه والمسيح وربّ موسى والجميع!
 إنا ذُبحنا هنا
 إنا طردنا من هنا!
 باسم السماء وباسمك العالي الرفيع!
 صرنا كأشلاء القطيع
 غرقت ديارك في بحار من نجيع!
 المسجد الأقصى تسرّب بالدماء!
 الهيكل الميمون لطح بالدماء!
 وكنيسة الاقباط عامت في الدماء!
 باسم السماء وباسمك العالي الرفيع
 دخل اللصوص ديارنا!
 خنق الظلام نشدنا!
 وصرخت يا الله! وارتعش النداء
 وسرت إلى اذني حشجة الفناء!
 وتفجرت خلفي المدافع في جنون
 وطوت ضراعات السماء قذائف المتجبرين

وصحوت من هول المصيبة بين آلاف البشر!
 ما زلت أذكر ذلك اليوم الحزين!
 يوم التقيت وإخوتي وبقية الشعب اليتيم!
 وتبادلت أنظارنا أثر الجريمة في سكون!
 ما زلت أذكر ذلك اليوم الحزين
 يوم التقينا في الحيام ويوم صرنا لاجئين!
 وعرفت كيف تلاعب الفتان في الزمن القديم
 بفصاحة الالفاظ، بالكلم المنسق والخيال
 فغدا الملوك الظالمون خلائف الرب الخنون
 وكذاك صرنا لاجئين!

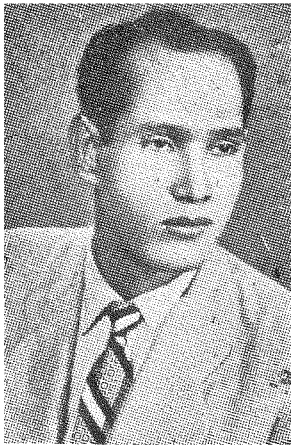
وغاب في قبر السنين
 شعب الضحايا الضائعين

وذكرت «أندلساً» وكيف طوى الظلام
 أرجاءها!! وذكرت «أسبانيا» الجديدة!
 وذكرت قومي

وأفقت من هول الهزيمة يارفاق!

ورأيت سرّ تعاسي وتعاسة الشعب الغنيم
 وأكاد أمسك يارفاق أصابع اللص اللثيم
 ورأيت من صنع الجريمة واختفى خلف الستار
 من باركوا الموت الرهيب وشرّدونا في القفار

إنا عرفنا يارفاق!
 من يصنعون قبورنا
 ويصنّفون لموتنا!
 من يقتلون ويلطمون
 من يشعلون لظى الحروب
 من يغنمون ويربجون
 بصناعة الموت الرهيب
 من يصنعون بذرة حمقاء مقبرة الحياة!
 ولسوف نخنقهم جميعاً يارفاق!
 إنا سنخنقهم جميعاً يارفاق!
 ولسوف يطلع فجرنا يوماً على هذي الربوع!
 ولسوف ادخل قريتي وأعود للبيت الوديع!
 وأضم قبر أبي، وألثم قبر أمي في خشوع
 أقسمت بالحق المقدس في دمي للخائنين!
 بتشردي! بمذلي! «بمرارة الجوع اللعين»!
 بتعاسة الأخت البغي! بأدمع الطفل اليتيم!
 بسواد أيام الشتاء! بصرخة الريح السموم
 سأعود أحمل حقدى الأعمى على جيش الطغاه
 ولسوف أحمل مدفعي، وألوك أكباد الجناه!
 إني سأرجع يا أبي، للثأر في يوم قريب!!
 ولسوف نهدم ما بناه الظلم، في الأمس الكئيب!
 إنا سنرجع يا أبي!! يوماً إلى هذي الربوع!!
 ولسوف ادخل قريتي!! وأعود للبيت الوديع!
 وأضم قبر أبي!! وألثم قبر أمي في خشوع!



سعد دعيبس

القاهرة